بعد ان انتهى الرقص بقليل، بدأ هجوم العرب على المستوطنة؛ حتى اذا احتدم هبّ اعصار امتلأت منه السماء بالغيوم، ثم مطر جزاف انهى المعركة بانسحاب المهاجمين. معركة لم تتكرر فيما بعد، لأن العرب، عنده، لا يقدرون على الاستمرار. قابلية ادراك معنى الحرب غير موجودة لديهم. ترى أكان يعني بالعاصفة ان عناصر الطبيعة تشد أزرهم ؟!

كل شخوص الرواية العرب، عنده، هم اشخاص بلغ النقصان بهم حدّاً يجعل اخلاصهم مستحيلاً، وكأن النقصان هو الاصل، فيما الشخوص اليهود، وكلهم دون استثناء معقّد، لكنها عقد الذين بلا أرض، الغرباء حيث حلّوا، بحيث يقنع القارىء الاوروبي بأن ما من سبيل الى رد انسانيتهم لهم الاّ وجود «الوطن القومي»، وفي فلسطين (أذكّر القارىء بتصريحات جون بول سارتر بعد زيارته الى اسرائيل)، ويلخّص هذا الوضع بجملة لدريفوس: «اذا وجد امامك حاجز ولم تستطع المرور من تحته، لا يبقى لديك الاّ القفز من فوقه».

انتقل في الفصل الثاني، الى التحدث عن التعاونيات، فقدّم لها بجملة من برنامج انشاء التعاونيات الجماعية في فلسطين الذي أقرّ سنة ١٩١١: «ان اقامة المزارع الجماعية في أرض ـ اسرائيل يستهدف ازالة الحقارة العرقية والاجتماعية».

تحدث جوزيف، في مذكراته، عن نفتالي الذي كُرِّس شهيد برج عذرا الاول وبطلها. وزاد، فقال ان هذا الابله لم يكن يؤمن بالعنف، ثم قال: «من أجل ان نرى الابطال يجب ان نستخدم منظاراً لا مجهراً. ان التاريخ هو سلسلة من السخافات التي ينتج تراكمها أثراً من عظمة».

مفهوم عجيب ومبتذل. لكن الذي يدرس، بجرأة، التاريخ اليهودي في كتبه، يصل الى هذه النتيجة. ولا أدري كيف من هذا المنطلق يتصور تاريخهم المقبل وبناء الدولة، لو أننا رأينا من مجمل الكتاب، فيما بعد، ان مهمة الدولة التي تمهد لها وتخلقها التعاونية تتلخص في انتاج بشر جديدين وانشائهم انشاء مختلفاً عمّا عهدوه. قال: «كانت الرفيقات يظهرن ببطون كبرت. انهن في غاية الغرور، لأنهن يزدن الولادة القومية، ولقد بتن أقل جاذبية من قبل، وافترض انهن يغنين النشيد الوطني خلال عملية الانجاب».

ثم تحدث عن زيارة تهنئة بمناسبة مرور عام على انشاء التعاونية، قام بها مختار الطابغة. وبعد ان وجد احد المعمّرين في الوادي الذي يقوم تحت المستعمرة قتيلاً وقد سُمِلت عيناه وانتزعت خصيتاه في كمين نصب لأي يهودي يمكن ان يمر، ويستغرب هذا الضرب من التجاهل للجريمة ويلح على نفاق المختار. وحين اتصل الحديث (حديث المختار) بأنباء الاقتراح القائل بالتقسيم (أي تقسيم سنة ١٩٣٨) أوهم القارىء بأن المختار (ويعني من ذلك العرب ما دام هو النموذج الذي انتقاه منهم) موافق على التقسيم، فسأله عن مصدر اخباره، أجاب المختار، بعد ان غمز بعينه انه بالغ السرية، فقدّر، آنئذٍ، انه ربما كان البائع المتجول الذي مرّ منذ ايام في طريقه بين القرى العربية.

وأعلن، في نهاية الزيارة، انه ليس من حزب امين الحسيني المتشدد، وانما هو من جماعة النشاشيبي المعتدلين، فيما المختار الثاني للطابغة هو من جماعة الحسيني، وان امله عند اقامة الدولة اليهودية ان يعين جابي ضرائب أو مفتشاً للباصات التي تسير على الطرق، وان يشنق المختار الآخر لجرائمه.

غني عن القول ان احداً من العرب، في تلك الاثناء، لم يكن يتصور قيام دولة يهودية. كانوا ينظرون الى المستقبل بكثير من التفاؤل القائم على عدم وضوح الرؤيا السياسية. فكيف يلتمسون عطف عدوهم بهذه الصورة الشائنة ؟

وفي الرواية كثير من الآراء التي يجب الاطلاع عليها، وأهمّها ما تعلق بتربية الجيل الصهيوني الجديد: «اننا نربي اطفالنا كامراء، فيما يعيش الجيل السالف كالخنازير». وذلك مثل عن الغلو الضار الذي تحمله الشدة اذا تصالبت مع التعصب اليساري. اننا نتعامل مع الجيل الجديد وكأنه صنم فيما يؤخذ السالف له على انه «سماد المستقبل»، وذلك ما كان يقوله متزمتو الثورة الروسية في بداياتهم. والنتيجة نسبة مرتفعة من المرضى